أداء تلك المهمة، مع سير الثقافة الغربية التي أطلقها اليونان قدماً، بانية فوق الموروث الإغريقي، متعاملة معه بآيات التحويل، النقد، الإغناء، الإهمال، إعادة الاحتضان، الإنكار... ولكن دون هجرانه على الإطلاق، في النهاية.

الجزء الثاني

تحول الحقبة الكلاسيكية

ما إن بلغ الإنجاز الفكري الإغريقي أوجه في القرن الرابع قبل الميلاد، حتى نزل الإسكندر الأكبر من أعالي مقدونيا واجتاح اليونان منطلقاً باتجاه بلاد فارس، مكتسحاً بلاداً وشعوباً من مصر إلى الهند، وبانياً أمبراطورية كانت ستضم الجزء الأكبر من العالم المعروف. وتلك الصفات ذاتها التي كانت قد خدمت تطور اليونان المبهر -صفات النزعة الفردية القلقة، النزعة الإنسانية الكريمة، النزعة العقلانية النقدية- ما لبثت أن باتت تعجل سقوطها؛ لأن الانقسام، والغطرسة، والانتهازية التي باتت تلقي بظلالها على مواصفات اليونانيين الأكثر نبلاً جعلت هؤلاء قصيري النظر وعاجزين تماماً عن مواجهة التحدي المقدوني. إلا أن قَدَر الإنجاز الهليني لم يكن هو الانطفاء برغم ذلك. فالإسكندر المتتلمذ على أرسطوطاليس شاباً في بلاط أبيه والمستلهم ملاحم هوميروس ومُثُل أثينا حمل معه الثقافة واللغة اليونانيتين ونشرهما في طول العالم الواسع الذي اجتاحه وعرضه. وهكذا فإن اليونان سقطت لحظة بلوغها الذروة، غير أنها انتشرت بانتصار وهي تستسلم.

وحسب خطة الإسكندر، فإن جملة المدن الأممية (الكوزموبولتية) الكبرى في الأمبراطورية - الإسكندرية التي أسسها بمصر في الطليعة - غدت مراكز حيوية لنهل الثقافة، عاش الموروث اليوناني الكلاسيكي وازدهر في مكتباتها وأكاديمياتها.

يبدو أن الإسكندر كان أيضاً شديد التأثر الإيجابي برؤية قرابة إنسانية كونية شاملة، متجاوزة لسائر الانقسامات السياسية، وقد حاول أن يحقق نوعاً من الوحدة الشاملة، نوعاً من الاندماج الثقافي، من خلال طموحه العسكري الهائل. غير أن أمبراطورية الإسكندر لم تبقَ متماسكة بعد موته المبكر، ففي أعقاب مدة طويلة من الصراعات بين الأسر الحاكمة والسيادات المتبدلة، برزت روما بوصفها بؤرة أمبراطورية جديدة، مع نقطة ارتكازها وأقاليمهما البعيدة، واقعة جميعاً في أمكنة أبعد غرباً.

وبرغم الاجتياح الروماني بقيت الثقافة اليونانية الرفيعة صاحبة اليد العليا بالنسبة إلى الطبقات المتعلمة في العالم المتوسطي الأوسع، وسرعان ما جرى استيعابها وتمثلها من قبل الرومان. ظل أهم وأبرز العلماء والفلاسفة يعملون داخل الإطار الثقافي اليوناني، ولم يتردد الرومان، في مآثرهم ومؤلفاتهم اللاتينية، أن يحذوا حذو الإغريقيين في مآثرهم العظيمة، بل بقوا حريصين على استئناف ومتابعة تطوير وتوسيع حضارة غنية بالغة الإتقان، وإن ظلت عبقريتهم الأكثر (براغماتية) ذرائعية كامنة في ميادين القانون، والإدارة السياسية، والإستراتيجية العسكرية. أما في حقول الفلسفة، والأدب، والعلوم، والفنون، والتعليم، فقد بقيت اليونان القوة الثقافية الأكثر إقناعاً وإلزاماً في العالم القديم. وكما قال الشاعر الروماني هوراس، فإن اليونانيين الأسرى نجحوا في أسر المنتصرين.

الخيوط المتقاطعة للنسيج الهلينستي

انحطاط العقل اليوناني والحفاظ عليه

على الرغم من نفوذ اليونان الثقافي المستمر بعد فتوحات الإسكندر وانتصاراته، وعلى امتداد حقبة الهيمنة الرومانية، فإن القالب الأصلي للعقل اليوناني الكلاسيكي لم يبقَ متماسكاً تحت وطأة ثِقَل هذا العدد الكبير من القوى الجديدة. فبعد أن أصبح العالم الهلينستي ممتداً من غرب البحر الأبيض المتوسط إلى أعماق آسيا الوسطى، بات الفرد المتأمل، ابن الحقبة الكلاسيكية اللاحقة، متعرضاً لحشد هائل من وجهات النظر. والتوسع الأولي للثقافة اليونانية شرقاً ما لبث أن جرى إتمامه بتدفق قوي

لسيل غزير من التيارات الدينية والسياسية المشرقية (الآتية من شرق المتوسط) على الغرب. في عدد من الجوانب المهمة تم إغناء الثقافة اليونانية بهذا الرافد الجديد، كما سبق أن تم اغتناء الثقافات غير اليونانية جراء التوسع الهليني. ومع ذلك، فإن العقل اليوناني المتركز على دولة المدينة تعرض، من نواحٍ أخرى، لفقدان شيء من شفافيته الواثقة السابقة وأصالته الجريئة. تماماً مثلما كانت النزعة الفردية النقدية في اليونان الكلاسيكية، قد أنتجت فنها وفكرها العظيمين، وإن أسهمت، في الوقت نفسه، في انحلال نظامها الاجتماعي وتفسخه، جاعلة إياه هشاً وسريع العطب في مواجهة الغزو المقدوني، كذلك بالتحديد تمخضت الحيوية النابذة للثقافة الإغريقية، ليس فقط عن نشرها الناجح والدعاية لها، بل وعن ذوبانها وتشظيها اللاحقين مع انفتاح دولة المدينة الكلاسيكية على زحمة التأثيرات المتناقضة لبيئة ثقافية متنوعة أكثر اتساعاً. فالأممية غير المسبوقة للحضارة الجديدة، وانهيار النظام القديم لدول المدن الصغيرة، والقرون اللاحقة من الاضطراب السياسي والاجتماعي المطرد، كانت جميعاً ذات تأثيرات سلبية عميقة. تعرضت كل من الحرية الفردية في مجتمع المدينة والمسؤولية أمام هذا المجتمع للتقويض؛ جراء ضخامة العالم السياسي الجديد واضطرابه. بدت المصائر الشخصية محددة بقوى كبرى لا شخصية أكثر منها بأي إرادة فردية. والوضوح القديم لم يعد في متناول الأيدي على ما بدا، وبات كثيرون يشعرون بأنهم في ضلال وضياع.

عكست الفلسفة هذه التغيرات، وحاولت أن تتناولها بالبحث. ففي حين أن **أفلاطون وأرسطو** بقيا موضوعي دراسة واقتداء، كانت المدرستان الفلسفيتان المهيمنتان المنتميتان إلى الحقبة الهلنستية، الرواقية والأبيقورية، من طبيعة مختلفة. فهاتان المدرستان، برغم كونهما مدينتين بالشيء الكثير لليونانيين السابقين، كانتا آليتي دفاع فلسفيتين نبيلتين، زاخرتين بالدروس الأخلاقية والمواعظ التوجيهية، في مواجهة أزمان قلقة وملأى باللا يقين وتحملها. وهذا الانقلاب في طبيعة الفلسفة ووظيفتها كان في جزء منه نتيجة نوع جديد من التخصص الفكري غداة قيام **أرسطوطاليس** بتوسيع دائرة العلوم وتصنيف أبوابها، تخصص ما لبث أن أدى

تدريجياً إلى فصل العلم عن الفلسفة، حاصراً الأخيرة بمواقف أخلاقية مدعومة بعقائد ماورائية (ميتافيزيقية) أو مادية ذات علاقة. ومع ذلك، فإن الدافع الفلسفي المميز للمدارس الهلينستية انبثق، خلف هذا العزل للفلسفة عن الدائرة الأوسع من الاهتمامات الفكرية، لا من الحماسة لإدراك العالم واستيعاب ما ينطوي عليه من ألغاز وضخامة، بل من الحاجة إلى تسليح الناس بشيء من النظام الإيماني والسلم الداخلي في مواجهة بيئة معادية غارقة في بحر من الفوضى. جاءت نتيجة هذا الدافع الجديد متمثلة في بروز فلسفات محدودة أكثر من حيث المدى، وأميل إلى القدرية من سابقاتها الكلاسيكيات. شكل فك الارتباط مع العالم ومع عواطف المرء الخاصة الخيار الرئيس، حيث ارتدت الفلسفة في كل من الحالتين ثوباً أكثر دوغمائية (ثوباً مفصلاً من قماشة الجمود العقديّ).

ومهما يكن تميزت الرواقية، وهي الأوسع تمثيلاً بين الفلسفات الهلينستية، برؤية سامية واعتدال أخلاقي كان من شأنهما أن يمكّناها من طبع روح الغرب بطابعها زمناً طويلاً. كان من شأن هذه المدرسة، الرواقية، التي أسسها في أثينا أوائل القرن الثالث قبل الميلاد زينو السيتيوي، الذي كان قد درس في الأكاديمية الأفلاطونية التي قام **كريسيبوس**، لاحقاً بمنهجتها، أن تغدو استثنائية النفوذ في عالم **شيشرون وسينيكا، وإبيكتيتوس وماركوس آوريليوس** الرومان. في النظرة الرواقية الواقع كله خاضع لقوة سماوية عاقلة، للوغوس أو العقل الكوني الناظم لجميع الأشياء. ولا يستطيع الإنسان بلوغ السعادة الحقيقية إلا إذا ضبط حياته وشخصيته على إيقاع هذه الحكمة الإلهية كلية القدرة. وأن تكون حراً يعني أن تعيش وفقاً لإرادة الرب، وما يهم في الحياة، آخر المطاف، هو الوضع الفاضل للروح، لا ظروف الحياة الخارجية. بقي الحكيم الرواقي المتميز بالصفاء الداخلي، بالحزم والانضباط الذاتي، وبالأداء الوجداني للواجب، لا مبالياً بتقلبات الأحداث الخارجية. وقد كان لوجود عقل يحكم العالم نتيجة مهمة أخرى بالنسبة إلى الرواقي. فاشتراك جميع الكائنات البشرية في **اللوغوس** (العقل - الحكمة) السماوي، كان يعني أن الجميع أعضاء في جماعة إنسانية كونية واحدة، في أخوية تحتضن البشرية وتشكل **المدينة العالمية** أو **الكوزموبوليس**، وأن كل فرد مكلف

بالمشاركة الفاعلة في شؤون العالم، وصولاً إلى أداء واجبه تجاه هذه الجماعة الكبرى.

في الأساس، لم تكن الرواقية إلا نوعاً من التطوير لعدد من العناصر المركزية للفلسفة السقراطية والهيراقليطية، مترجمة إلى لغة الحقبة الهلينستية الأقل انغلاقاً والأكثر مسكونية أو عالمية. أما منافستها المعاصرة: **الأبيقورية**، فقد تميزت، بالمقابل، عن الإيمان الرواقي بالفضيلة الأخلاقية واللوغوس الحاكم للعالم، كما عن المفاهيم الدينية التقليدية، عبر تأكيد القيمة الأولى للسعادة الإنسانية، محددة بوصفها تحرراً من الألم والخوف. لا بد للبشرية من التغلب على إيمانها الخرافي بالآلهة المتقلبة ذوات القوالب الإنسانية في التقاليد الشعبية، كما قضت تعاليم **أبيقور**؛ لأن هذا الإيمان، قبل كل شيء، مع القلق إزاء العقاب السماوي بعد الموت، هو السبب الكامن وراء بؤس الإنسان. ليس ثمة ما يدعو المرء إلى الخوف من الآلهة؛ لأن هؤلاء ليسوا مهتمين بعالم البشر، كما ليس هناك ما يدعوه إلى الخوف من الموت؛ لأن هذا الأخير لا يعدو كونه مجرد انطفاء للوعي، بعيداً عن أن يكون مقدمة لعقاب مؤلم. أما السعادة في هذه الحياة فأيسر السبل إليها هو الانسحاب من شؤون العالم لاعتماد وجود هادئ قائم على المتع البسيطة برفقة ثلة من الأصدقاء. أما الكوزمولوجيا المادية التي قام عليها النظام الأبيقوري، فتمثلت في ذَرّية **ديموقريطوس**، حيث الجزيئات المادية تشكل جوهر العالم بما فيه روح الإنسان الفاني. مثل هذه الكوزمولوجيا والتجارب الإنسانية المعاصرة لم تكن غير ذات علاقة؛ لأن مواطني الحقبة الهلينستية، وقد حُرموا من العالم المحدد، الممركز، المنظم عضوياً لدولة المدينة: البوليس – العالم الذي لم يكن طابعه العام بعيداً عن طابع الكون (الكوزموس) **الأرسطوطاليسي** – ربما أحسوا وبقوة بوجود نوع من التناظر بين قَدَرهم هم وبين قَدَر الذرات الديموقريطوسية، المتحركة بعشوائية، تنفيذاً لأوامر قوى لا شخصية في الفراغ الذي لا مركز له لكون متسع اتساعاً يفضي إلى الضياع والتشتت.

إن انعكاساً أكثر جذرية لصورة الانقلاب الفكري الحاصل في الحقبة تمثل في نزعة الشك المنهجية التي مثلها مفكرون، مثل: **بيرو الإيلي وسكستوس إمبريكوس**، رأوا أن ليس ثمة حقائق يمكن إثباتها وأن الموقف الفلسفي الصحيح الوحيد هو

التعليق الكامل للحكم. ومن خلال صياغة سلسلة من الحجج القوية القادرة على تفنيد سائر المزاعم الدوغمائية التي تدعي المعرفة الفلسفية، دأب فرسان الشك على إبراز حقيقة أن أي نزاع بين حقيقتين ظاهريتين ليس قابلاً للحل إلا من خلال التماس معيار ما، غير أن هذا المعيار نفسه لا يمكن تسويغه إلا بالتماس معيار إضافي ما، مما سيتطلب نكوصاً لا نهائياً لمثل هذه المعايير، دون أي أساس. يقول **آركيسيلاوس**، أحد أعضاء الأكاديمية الأفلاطونية (التي أقدمت، على نحو لافت، على احتضان نزعة الشك في هذه المرحلة، مجددة جانباً مركزياً من جوانب جذورها السقراطية): (لا شيء مؤكد، حتى هذا الكلام). صحيح أن المنطق كثيراً ما كان يُوظَّف ببراعة، في الفلسفة الهلينستية، لتسليط الضوء على مدى عبثية جزء كبير من المشروع الإنساني، ولا سيما السعي لامتلاك الحقيقة الماورائية (الميتافيزيقية). ولكنّ هناك شكَّاكين، مثل: سكستوس جادلوا، قائلين: إن المؤمنين بالقدرة على معرفة الواقع معرضون لسلسلة متصلة من الإحباط والشقاء في الحياة. ولو بادر هؤلاء، بصدق، إلى تعليق الحكم عبر التسليم بأن معتقداتهم بشأن الواقع ليست صحيحة ونافذة بالضرورة، لحصلوا على نعمة هدوء البال، رافضين تأكيد إمكانية المعرفة ونفيها، ومن ثم يجب عليهم أن يبقوا في حالة رباطة جأش منفتحة، بانتظار رؤية ما سيطفو على السطح.

لم ينجح هؤلاء الفلاسفة، برغم كونهم مهمين وجذابين في أساليبهم المختلفة، في إشباع الروح الهلينستية وإقناعها كلياً. فواقع السماء عُدَّ إما غير حساس أو غير ذي شأن بالنسبة إلى شؤون الإنسان (**الأبيقورية**)، حَتْمِيّ عنيد ولو إلهي (الرواقية)، أو بعيد كلياً عن متناول البشر (**نزعة الشك**). العلوم أيضاً أصبحت أكثر عقلانية بعد الخلاص من الدافع أو الهدف الديني الافتراضي للإدراك الإلهي المتجلي من قبل في أعمال **فيثاغورس**، **وأفلاطون**، **وأرسطوطاليس**. ومن هنا، فإن مطالب الثقافة الدينية والعاطفية باتت تُلبى على نحوٍ مباشر مئة بالمئة من قبل سائر الأديان السرية المختلفة -الإغريقية، المصرية، المشرقية- التي كانت توفر الخلاص من سجن العالم، والتي ازدهرت في مختلف أرجاء الأمبراطورية بقدرٍ مطرد الاتساع من الشعبية. غير

أن هذه الأديان، بأعيادها وطقوسها السرية المكرسة للآلهة المختلفة، أخفقت في فرض الـولاء على كثيرين من منتسبي الفئـات المتعلمة. فبالنسبة إلى هؤلاء كانت الأساطير القديمـة مختصرة ولا تفيـد إلا أدوات مجازية في النقاشـات العاقلة. ومع ذلك، فإن العقلانيـة المتزمتة للفلسفات المهيمنة تركت قدراً معينـاً من الجوع الروحي. أما تلك الوحـدة الإبداعية الفريدة بين العقل والعاطفـة للأزمان الغابرة، فقد كانت اليوم قد تصدعـت. ففي زحمة بيئة ثقافية شديدة التعقيـد على نحوٍ استثنائي -بيئة مشغولة، متمدنـة، مصفّـاة، أممية (كوزموبوليتيـة)- كثيراً ما كان الفرد يبقـى دون أي دافع مقنع أو ملزم. كانت التركيبة الكلاسيكية ليونان ما قبل الإسكندر قد تداعت، بعد أن خارت قواها في عملية الانتشار.

والحقبـة الهلينستيـة كانـت عصـراً بالـغ الغنى يعـود إليـه فضل سلسلـة طويلة ومهمـة، من الإنجازات الثقافية التي لا يمكـن الاستغناء عنها، من وجهة نظر الغرب الحديث. لعـل من أبرزها الاعـتراف بالإنجازات اليونانية الأبكـر والحفاظ اللاحق على الكلاسيكيـين من هوميروس إلى أرسطوطاليس. تم جمـع النصوص، ومعاينتها منهجيـاً، وتحريرها بجد واجتهاد لإعداد لائحة نهائية بمؤلفات عظيمة ورائعة. وعند تأسس فرع العلوم الإنسانية، جرى تطوير أنظمة معينة لضبط النقد النصي والأدبي، وإنتـاج تحليـلات وتعليقات تفسيريـة، وطرح الأعمـال العظيمة، بوصفهـا مثُلاً عليا محترمة لإغنـاء أجيال المستقبل. كذلك تمت في الإسكندريـة ترجمة الكتاب المقدس (العهد القديم «التـوراة») المكتوب بالعبرية إلى اللغة اليونانية، فظهرت السبعونية*، تجميعـه، وتحريره، وتصنيفه بالقدر نفسه من الاجتهاد البحثي الذي كُرس للملاحم الهوميرية والحوارات الأفلاطونية.

التعليم نفسه أصبح ممنهجاً وواسع الانتشار، إذ مؤسسات أكاديمية كبيرة ومتقنة التنظيـم تأسست لمتابعة البحث المدرسي في عـدد من المدن الكبرى، مثل الإسكندرية بمتحفها (الميوزيوم)، وبيرغاموم** بمكتبتها، وأثينا بأكاديمياتها الفلسفية المستمرة في الازدهار. بقي الحكام الملكيون للدول الأمبراطورية الهلينستية حريصين على تمويل المؤسسات التعليمية العامة، دائبين على استخدام العلماء والباحثين موظفين رسميين للدولة، ذوي رواتب عالية. وثمة شبكات تعليمية عامة كانت موجودة في جل المدن الهلينستية،

وقد كانت وفرة من الثانويات (الجيمنازيا) والمسارح، مع مؤسسات تعليمية متقدمة في ميادين الفلسفة، والآداب، والبلاغة اليونانية في متناول الناس على نطاق واسع. شهدت التربية (**البايديا**) الإغريقية ازدهاراً، وهكذا فإن الإنجازات الهلينية السابقة تعززت مدرسياً، وتوسعت جغرافياً، وتمت صيانتها بحيوية خلال الجزء الباقي من الحقبة الكلاسيكية.

الفلك

فيما يخص الإسهامات الأصيلة، فقد كان ميدان العلوم الطبيعية هو الذي حققت فيه الحقبة الهلينية تفوقاً استثنائياً. فكل من أستاذ الهندسة **إقليدس**، وأستاذ الهندسة والفلك أبولونيوس، وأستاذ الرياضيات الطبيب أرخميدس، وأستاذ الفلك هيبارخوس، وأستاذ الجغرافيا سترابو، والطبيب جالينوس، وأستاذ الجغرافيا والفلك **بطليموس**، حقق آيات من التقدم والتصنيف التي كانت ستبقى أنموذجية أصلية قروناً عديدة. جاء تطور الفلك الرياضي منطوياً على أهمية استثنائية. فمشكلة الكواكب اهتدت إلى أول حلولها في نظرية كُرات **يودوكسوس** المترابطة ذات المركز الموحد التي فسرت الحركة التراجعية من جهة وقدمت نبوءات قريبة من الدقة من جهة ثانية. غير أنها لم تقم بتفسير الاختلافات الحاصلة في سطوع الضوء لدى تراجع الكواكب؛ لأن الكرات الدائرة كانت، بالضرورة، تُبْقي الكواكب على مسافة ثابتة من الأرض. هذا الإخفاق النظري هو الذي استثار عدداً من علماء الرياضيات والفلك اللاحقين وحفزهم على استكشاف أنظمة هندسية بديلة.

ثمة قلة، منها **فيثاغورس**، تقدمت بالاقتراح الثوري القائل بحركة الأرض. رأى عضو في أكاديمية **أفلاطون** يدعى **هيراقليدس**، أن الحركة اليومية للسماوات ناجمة بالفعل عن دوران الأرض حول محورها، وأن كوكبي عطارد والزهرة، اللذين كانا يبدوان دائماً قريبين من الشمس، لم يبدوا كذلك إلا لأنهما يدوران حول الشمس لا حول الأرض. وبعد قرون من الزمن، قطع آريستارخوس شوطاً إضافياً وطرح فرضية تقول: إن الأرض وسائر الكواكب تدور حول الشمس، وإن الشمس، مثلها مثل الكرة

الخارجية من النجوم، ثابتة حيث هي[11].

أما النماذج المختلفة فقوبلت بالرفض بالاستناد إلى أسباب رياضية وفيزيائية وجيهة. لم يتم رصد أي تغير نجمي، وكان من شأن مثل هذا المتغير أن يحصل لو أن الأرض كانت تدور حول الشمس وتقوم، من ثم بقطع مسافات طويلة جداً نسبة إلى النجوم (ما لم تكن كرة النجوم الخارجية، كما قال **آريستارخوس**، استثنائية الضخامة على نحوٍ متعذر الإدراك). يضاف إلى ذلك، كان من شأن فكرة أرض متحركة أن تنسف كلياً التناغم الشامل لكوزمولوجيا **أرسطوطاليس**، فهذا الأخير كان قد تعامل على نحوٍ حاسم مع فيزياء الأجسام الساقطة، مبيناً أن الأشياء الثقيلة تتحرك باتجاه الأرض؛ لأن الأخيرة هي مركز الكون الثابت. ولو كانت الأرض متحركة لتعرض هذا الكلام المعلل جيداً والواضح ذاتياً عن الأجسام الساقطة للتقويض دون توفير نظرية ذات قوة موازية تحل محله. وما قد يكون حتى أكثر جذرية، لبات من شأن أي أرض كوكبية أن تكون متناقضة مع الثنائية الأرضية - السماوية ذات الوضوح القديمة المستندة إلى الجلال المتعالي للسماوات. أخيراً، تملي الفطنة أو الحصافة، بصرف النظر عن جملة القضايا النظرية والدينية، أن من شأن أي أرض متحركة أن تجبر الأشياء والأشخاص فوقها على التقلب، وأن تترك الغيوم والطيور وراءها، وما إلى ذلك. فالأدلة الواضحة الملتقطة بالحواس تجادل دعماً لفكرة وجود أرض مستقرة.

من منطلق مثل هذه الاعتبارات، قررت أكثرية علماء الفلك الهلينستيين تأييد الفكرة القائلة بكون مركزه الأرض، وواصلت اعتماد سلسلة من الصيغ الهندسية المختلفة لتفسير المواقع الكوكبية. والنتيجة التراكمية لهذه الجهود ما لبثت أن صُنفت في القرن الثاني قبل الميلاد على يد بطليموس الذي أفضت تركيبته إلى ترسيخ الأنموذج الأصلي لعمل الفلكيين منذ ذلك التاريخ وحتى عصر النهضة. إن التحدي الأساسي الذي انتصب في وجه **بطليموس** بقي على حاله، كما من قبل: ما السبيل إلى تفسير جملة المفارقات الكثيرة، والكثيرة جداً، بين البنية الأساسية للكوزمولوجيا الأرسطوطاليسية، التي تتطلب تحرك الكواكب على نحوٍ متسق في دوائر كاملة حول أرض مركزية ثابتة، من جهة، وبين أرصاد الفلكيين الفعلية للكواكب، التي

بـدت متحركة بسرعات، واتجاهات، ودرجات بريق متفاوتة، من جهة ثانية. بناءً على الخطـوات المتقدمة الجديدة التي خطتهـا الهندسة اليونانية، علـى أرصاد البابليين المستمـرة وتقنياتهم الاحتسابية الخطية، وعلى عمـل الفلكيين اليونانيين **أبولونيوس وهيبارخوس**، أنجـز **بطليموس** رسـم الخارطة الآتية: إن الكـرة الخارجية الدائرة القصوى للنجوم الثابتة دائبة يومياً على نقل السماوات غرباً حول الأرض. وداخل تلك الكـرة يكـون كل كوكب، على أي حال، بما في ذلك الشمس والقمر، في حركة دورانية متجهة شرقاً بوتائر مختلفة أبطأ، كل منها في دائرته الكبرى الخاصة المعروفة باسم ناقلة (أو ناقل). وفيمـا يخص الحركات الأكثر تعقيداً للكواكب الأخرى غير الشمس والقمـر، جرى استحـداث دائرة أخرى أصغـر، عرفت باسم دائرة فرعيـة أو تابعة، تـدور باتسـاق وانتظام حول نقطة بقيت دائرة حول النـاقـل. نجحت الدائرة الفرعية في حـل ما لم تستطع كرات **يوكسودوس** حلـه؛ لأن الدائرة الفرعية الدوارة دأبت آلياً على تقريب الكوكب من الأرض كلما كانت في حالة تراجع، بما كان يجعل الكوكب يبدو أكـثر بريقاً. وعن طريق ضبط سائـر وتائر الدوران المختلفة العائدة لكل ناقل ودائرة فرعيـة، استطاع الفلكيـون تقدير الحـركات المتباينة لكل كوكـب. إن بساطة خارطة النـاقـل – الدائرة الفرعية، إضافـةً إلى تفسيرها للبريق المتغير، جعلت هذه الخارطة الطرف المنتصر في مسيرة البحث عن أنموذج فلكي قابل للحياة.

ولكـن هذه الخارطة لا تلبث، لـدى تطبيقها، أن تتكشف عن المزيد من الاختلالات الثانوية التي بادر بطليموس لشرحها إلى استخدام المزيد من الحيل الهندسية: شواذ (دوائر ذوات مراكـز بعيدة عن مركز الأرض)، ودوائر فرعية ثانوية (دوائر إضافية أصغـر دائرة حول دائـرة فرعية أكبر أو ناقـل)، وموازين (موفـرة للمزيد من شرح السرعات المختلفة عبر وضع نقطة أخرى، بعيداً عن مركز الدائرة التي كانت الحركة حولها متسقة). كذلك كان أنموذج بطليموس المتقن والمعقد من الدوائر المركبة قادراً علـى تقديم الروايـة الكمية المنهجيـة الأولى لمجمل الحركات السماويـة. يضاف إلى ذلك أن الأنموذج، بتعدديته المناسبة لتلبية حاجة أي أرصاد متضاربة جديدة بإضافة تعديـلات هندسية جديدة (أي إضافة دائرة فرعية أخـرى لإحدى الدوائر الفرعية، أو شـاذاً إلى أحد الشواذ) أضفى على هـذا الأنموذج قوة مرنة أدت إلى إدامة حكمه

عبر العصرين الكلاسيكي والوسيط. كانت الكوزمولوجيا الأرسطوطاليسية، بأرضها المركزية الثابتة، بكراتها الأثيرية الدوارة، وبفيزيائها الأولية، قد وفرت الإطار الأساسي لعلماء الفلك الهلينستيين، فغدا الكون البطليموسي - الأرسطوطاليسي المركب بدوره التصور الأساسي للعالم الذي ظل يغني رؤية الغرب الفلسفية، والدينية، والعلمية على امتداد القرون الخمسة عشرة المقبلة.

التنجيم

إن الفلك الرياضي في العالم الكلاسيكي لم يكن فرعاً علمانياً كلياً من فروع المعرفة. فالفهم القديم للسماوات بوصفها مقرات الآلهة كان شديد الالتصاق بالفلك المتطور بسرعة إلى صيغة باتت تُعد علم التنجيم الذي كان بطليموس ممنهجه الطليعي في الحقبة الكلاسيكية. وبالفعل، فإن جزءاً كبيراً من الحافز على تطوير الفلك مستمد مباشرةً من علاقاته بالتنجيم الذي وظف التقدم التقني الحاصل لتحسين قوته التنبؤية الخاصة. بالمقابل، تمخض الطلب الواسع على الرؤية التنجيمية -في بلاطات الملوك، أو أسواق العامة، أو مدارس الفلاسفة على حد سواء- عن تشجيع المزيد من تطور الفلك واستمرار أهميته الاجتماعية، حيث شكل الفرعان المعرفيان مهنة واحدة أساساً من الحقبة الكلاسيكية، وحتى عصر النهضة.

مع الدقة المتزايدة كثيراً لعمليات الاحتساب الفلكية، كان تصور الرافدين (ميسوبوتاميا) القديم لأحداث السماء المعبرة عن أحداث أرضية - مذهب التعاطف الكوني القائل: (يكون تحت كما يكون فوق) - قد وُضع الآن في إطار إغريقي أكثر إتقاناً ومنهجية من المبادئ الرياضية والنوعية. ثم ما لبث هذا النظام أن طُبق من قبل المنجمين الهلينستيين لصياغة نبوءات ليس فقط من أجل جماعات كبيرة كالأمم والأمبراطوريات، بل ومن أجل أشخاص أفراد أيضاً. وعن طريق حساب المواقع الدقيقة للكواكب لحظة ولادة شخص معين، وعبر استخلاص مبادئ أنموذجية أصلية من التناظرات المتصورة بين آلهة أسطورية معينة وكواكب محددة، دأب المنجمون على اشتقاق استنتاجات تخص شخصية الفرد ومصيره. ومزيد من الرؤى برزت من خلال توظيف مبادئ فيثاغورسية وبابلية مختلفة ذات علاقة ببنية الكون وعلاقته

الأصلية بالكـون الجزئي، الإنسان. عكف الأفلاطونيون على دراسة السبل التي تمكن تحالفـات كوكبية محـددة من تحقيق ذوبـان طابع الكوكـب في بوتقة الفـرد، وصولاً إلى نـوع مـن الاتحاد الأنموذجي الأصلـي بين الحامل والمحمول، بـين الفاعل ومتلقي الفعل. وبدورها قامـت الفيزياء الأرسطوطاليسية، بلغتها الاصطلاحية اللاشخصية وتفسيرهـا الميكانيكي لتأثير السماء في الظواهر الأرضية عبر كرات العناصر، بتوفير إطـار عملـي مناسب للفـرع الاختصاصـي المتطـور. إن العناصر المتراكمـة لنظرية التنجيـم الكلاسيكيـة ما لبثت أن صُبـت من قبل بطليموس في قالـب تركيبي موحد، وظفـه الأخير لتصنيف معاني الكواكب، ومواقعها، ومناحيهـا الهندسية، إضافةً إلى تأثيراتها المختلفة في الشؤون الإنسانية.

ومع بـروز المنظور التنجيمـي، ساد الاعتقاد علـى نطاق واسع بأن حيـاة الإنسان الخاضعـة لا لحكم المصادفـة المزاجية، بل لتوجيه قَدَر منظم قابل لأن يُعرف إنسانياً تحـدده آلهة السماء وفقـاً لحركات الكواكب. ومن خلال مثل هـذه المعرفة كان الظن بـأن الإنسان قادر على فهم قَدَره والتصرف مـن منطلق إحساس جديد بأمان كوني. والتصـور التنجيمـي للعالم بـدا شديد القرب من عكـس المفهوم اليونـاني الأساسي **للكوزموس** نفسـه، للتنميـط المنظـم تنظيمـاً مفهومـاً والتجانس المترابـط للكون، حيـث الإنسـان جزء لا يتجـزأ من الكل. مع تعاقـب مدد الحقبـة الهلينستية، ما لبث التنجيم أن أصبح المنظومة العقدية المخترقة حدود العلم، والفلسفة، والدين، مشكلاً عنصـر توحيـد استثنائيـاً في نظرة العصـر المتشظية دونـه. مشعـاً إلى الخارج من مركـز الإسكندرية الثقافي، نجح الإيمان بالتنجيم في اكتساح العالم وقوبل بالترحيب لـدى الفلاسفة الرواقيـين، والأفلاطونيين، والأرسطوطاليسيـين، ولدى علماء الفلك والرياضيـات وحكماء الطب، ولـدى المولعين بالملاحم الهوميريـة ومعتنقي الديانات السرية، على حدٍّ سواء.

ومع ذلك، فـإن الأساس المركزي للفهم التنجيمي قد جرى تفسيره بطرق مختلفة من قبل جماعات متباينة، كل تبعاً لنظرتها العالمية. فبالنسبة إلى بطليموس وزملائه، يبـدو أن التنجيـم عُد علماً مفيـداً – دراسة مباشرة لكيفية تزامـن مواقع أو تراكيب كوكبيـة معينة مـع أحداث ومواصفـات شخصية محـددة. وقد لاحـظ بطليموس أن

التنجيم لا يستطيع أن يزعم أنه علم دقيق مثل الفلك؛ لأن الأخير يتعامل حصراً مع الرياضيات المجردة للحركات السماوية الكاملة، في حين يتولى التنجيم تطبيق تلك المعرفة على المجال الناقص الأقل قابلية للتنبؤ بالضرورة للنشاط الأرضي والإنساني. ولكن بطليموس وعصره ظلا مؤمنين بأن التنجيم نافذ، يمكن التعويل عليه برغم بقائه عرضة للنقد جراء بعده الحقيقي عن الدقة وقابليته للخطأ. إنه يتقاسم مع الفلك التركيز نفسه على الحركات المنتظمة للسماوات؛ ونظراً للقدرات السببية التي تمارسها الكرات السماوية، يتمتع التنجيم بأساس عقلاني ومبادئ عمليات راسخة، تولى بطليموس مهمة تحديدها.

بروح أكثر فلسفية، عكف الرواقيون اليونان والرومان على تفسير التناظرات التنجيمية، بوصفها دالة على الحتمية الأساسية التي تمارسها الأجرام السماوية على حياة الإنسان. ومن هنا، فقد عُد التنجيم أفضل أساليب تفسير إرادة الكون وقيام المرء بالتوفيق بين حياته وبين عقل السماء المقدس. من منطلق اقتناعهم بأن قَدر الكون حاكم للأشياء كلها، ومن منطلق إيمانهم بتعاطف أو قانون عام وشامل موحِّد لسائر أجزاء الكون، كان الرواقيون يرون التنجيم وثيق التجانس مع نظرتهم العالمية. عبرت الديانات السرية عن فهم مشابه لهيمنة الكواكب على الحياة الإنسانية، غير أنها كانت ترى إضافة إلى ذلك نوعاً من الوعد بالانعتاق: خلف الكوكب الأخير، زحل (إله القَدَر، القصور، والموت)، تسود الكرة الشاملة للجميع لإله أكبر، قدرته الكلية السماوية مؤهلة لانتشال روح الإنسان من أسر حتمية الحياة الفانية ورفعها إلى ملكوت الحرية الأزلية. وهذا الإله الأعلى حاكم لسائر الآلهة الكوكبية، وقادر، إذًا، على تعليق قوانين القدر وتحرير الفرد المؤمن الورع من شرك الحتمية[12]. كذلك كان الأفلاطونيون يرون الكواكب خاضعة لحكم الخير الأعلى النهائي، وإن ظلوا ميالين إلى عد التشكيلات السماوية تشكيلات موحية أكثر منها سببية، وغير محدِّدة على نحوٍ مطلق بالنسبة إلى الفرد المتطور. ثمة نظرة أقل قدرية كانت أيضاً مضمرة في مقاربة بطليموس، حيث شدد على القيمة الإستراتيجية لمثل هذه الدراسات ورأى أن الإنسان قادر على الاضطلاع بدور فاعل في الخارطة الكونية. غير أن الإيمان بامتلاك حركات الكواكب لمغزى قابل للفهم بالنسبة إلى حياة الإنسان مارس، مهما

كان التفسير المحدد والخاص، تأثيراً هائلاً في المزاج الثقافي للحقبة الكلاسيكية.

الأفلاطونية الجديدة

ثمة ميدان فكري آخر حاول أن يرأب الصدع الهلينستي بين الفلسفات العقلانية والأديان السرية، فخلال القرون العديدة التي أعقبت موت أفلاطون منتصف القرن الرابع قبل الميلاد، دأب تيار متواصل من الفلاسفة على تطوير فكره عن طريق التركيز على مناحيه الماورائية (الميتافيزيقية) والدينية ومضاعفتها. وعلى مسار عملية التطور هذه راح أسمى المبادئ المتعالية يدعى «**الواحد**». وثمة تأكيد جديد صار يتكرر حول (الهرب من الجسد) بوصفه شرطاً ضرورياً لصعود الروح الفلسفي إلى حقيقة السماء المقدسة وقد بدأت **الأشكال** توضع في عقل السماء، وتم إبداء اهتمام متزايد بمشكلة الشر وعلاقتها بالمادة. بلغ هذا التيار الفلسفي أوجه في القرن الثالث بعد الميلاد في مؤلفات **أفلوطين** الذي قام، عبر إدخال عنصر صوفي أكثر صراحة في المشروع الأفلاطوني، مع استيعاب جوانب معينة من الفكر الأرسطوطاليسي بصياغة فلسفة «أفلاطونية محدثة» ذات قوة فكرية معتبرة ومدى كوني. مع أفلوطين وصلت الفلسفة العقلانية اليونانية إلى محطتها الأخيرة، وانتقلت إلى روح أخرى، أكثر اتصافاً بالصفة الدينية، إلى نوع من الصوفية الفوق عقلانية (المتجاوزة للعقل). إن طابع حقبة جديدة، ذات حساسية نفسية (سايكولوجية) ودينية مختلفة جذرياً عن نظيرتها في الهلينية الكلاسيكية، بات موشكاً على البروز.

فعقلانية العالم وبحث الفيلسوف، في فكر **أفلوطين**، إن هي إلا التمهيد لوجود أكثر تعالياً فيما وراء العقل. وكون **الأفلاطونية** المحدثة ليس إلا نتاج فيض إلهي من الواحد الأعلى، الذي هو لانهائي في كينونته وفوق كل وصف أو مقولات. فالواحد، ويدعى الخير أيضاً، يعكف عبر فيض من الكمال الخالص على إنتاج «الآخر» -الكون المخلوق بكل تنوعه- في سلسلة هرمية متراتبة من الدرجات المبتعدة عن هذا المركز الوجودي (الأونطولوجي) إلى التخوم المتطرفة لما هو ممكن. يتمثل فعل الإبداع الأول بمبادرة **الواحد** إلى **إطلاق** الذكاء المقدس، **النوس**، الحكمة الطاغية للكون، المنطوي على جملة **الأشكال** أو **الأفكار** (المُثُل) التي تسبب العالم وتنظمه. ومن النوس تخرج

روح **العالم** التي تحتضن العالم وتنفخ فيه الحياة، تشكل منبع سائر أرواح الكائنات الحية، وتؤسس للواقع الانتقالي المتوسط بين **الذكاء** الروحي وعالم المادة. إن فيض القداسة من الواحد عملية وجودية (أونطولوجية) شبّهها **أفلوطين** بالضوء الذي ينتشر تدريجياً من قنديل إلى أن يغيب أخيراً ويتلاشى في الظلام. غير أن الدرجات المتعددة ليست دوائر منفصلة بمعنى زماني أو مكاني، بل هي مستويات متمايزة لوجود حاضر أبداً في جميع الأشياء. و«الأقانيم الثلاثة» -الواحد، **والذكاء**، والروح- ليست كيانات حرفية، بل أمزجة أو نزعات روحية، بالأحرى، تماماً كما **الأفكار** ليست أشياء مميزة بل هي، بالأحرى، حالات وجود مختلفة **للعقل** المقدس.

يبقى العالم المادي، الموجود في الزمان والمكان والمدرك بالحواس، مستوى الواقع الأبعد عن القداسة الأحادية. وبوصفه الحد الأخير للخلق، يتميز سلبياً بكونه ملكوت التعدد، والتقييد، والظلام، بوصفه الأدنى على سلم الوجود -محتلاً أقل درجات الوجود الحقيقي وأحطها- وبوصفه مستأنفاً مبدأ الشر، إلا أنه يتميز إيجابياً أيضاً، برغم نواقصه الجدية، بوصفه إبداعاً للجمال كلاً عضوياً أفرزته روح العالم وتبقيه متماسكاً في نوع من التناغم والانسجام الكونيين. إنه يعكس صورة غير كاملة على المستوى الزماني - المكاني الوحدة المجيدة في التنوع الموجود على مستوى أعلى من عالم **الذكاء** الروحي **للأشكال**: ليس المحسوس إلا صورة نبيلة لما يمكن فهمه. وعلى الرغم من أن الشر موجود في قلب هذا التآلف، فإن الواقع السلبي يضطلع بدور ضروري في أي مخطط أوسع، ولا يؤثر آخر المطاف، لا في كمال الواحد، ولا في سعادة ذات الفيلسوف العليا.

يبقى الإنسان الذي هو من طبيعة روح في جسد منطوياً على قدرة بلوغ أعلى المراتب الفكرية والروحية، وإن كان هذا متوقفاً على انعتاقه من أسر ماديته. بوسع الإنسان أن يرقى إلى وعي روح **العالم**- محوِّلاً ما هو بالقوة إلى كائن بالفعل -وأن يرتفع من هناك إلى **الذكاء** الكوني، أو يمكنه أن يبقى مقيداً ومحصوراً بالمراتب الدنيا. ولأن جميع الأشياء تفيض من الواحد، عبر **الذكاء وروح العالم**، ولأن الخيال الإنساني في أوجه يشارك في تلك القداسة الأولى، فإن بمقدور روح الإنسان العقلانية

أن تعكس خيالياً جملة **الأشكال** المتعالية، ثم تتحرك، من خلال هذه النظرة الثاقبة المخترقة لنظام الأشياء النهائية، باتجاه التحرر الروحي. إن الكون الكلي موجود في فيض متواصل صادر عن الواحد ومتدفق على الكثرة المخلوقة، التي لا تلبث، بعد حين، أن يجري اجتذابها إلى **الواحد** من جديد في عملية فيض وعودة دائمة الحركة بدفع من كمال الواحد الفياض والوفير. تتمثل مهمة الفيلسوف بقهر عبودية الإنسان للعالم المادي عن طريق الانضباط الذاتي والتطهر على الصعيدين الأخلاقي - المعنوي والفكري، والالتفات إلى الداخل نحو نوع من العودة الصاعدة إلى المطلق. إن لحظة التنور الأخيرة تتعالى على المعرفة بأي معنى مألوف وتتجاوزها، ويتعذر تحديدها أو وصفها؛ لأنها مستندة إلى نوع من التغلب على ثنائية الذات والموضوع بين الباحث والهدف: إنها عملية تتويج لرغبة تأملية توحِّد الفيلسوف مع الواحد.

وهكذا، فإن أفلوطين قام بصياغة ميتافيزيقيا عقلانية متقنة التماسك ومثالية بلغت اكتمال إنجازها في إدراك صوفي أحادي للألوهية العليا بقدر واثق وشديد الحساسية من الدقة، وبنثر مدهش الجمال في الغالب، قام أفلوطين بوصف الطبيعة المعقدة والمركبة للكون ومشاركته فيما هو مقدس وسماوي. ومقيماً صرح فلسفته على أساس عقيدة الأفكار المتعالية الأفلاطونية، أضاف فيما بعد أو حذف عدداً غير قليل من الملامح الجديدة، المحدِّدة، الحركية الغائية، والتراتب الهرمي، والفيض، ونوع من الصوفية فوق العقلانية. وبهذه الصيغة، أصبحت الأفلاطونية المحدثة التعبير الأخير عن الفلسفة الوثنية الكلاسيكية، وبادرت إلى الاضطلاع بدور حامل الأفلاطونية التاريخي في القرون اللاحقة.

نجح كل من الأفلاطونية المحدثة والفلك في التعالي على الانشقاق الفكري في الحقبة الهلينستية، وقد كانا، مثل أشياء أخرى كثيرة في الثقافة الكلاسيكية، نتاج صيغ الفكر اليوناني المتوغلة، والمتزاوجة مع حشد من الحوافز الثقافية اللاهلينية. وقد مارسا، كل على طريقته، تأثيراً مستديماً، وإن مضمراً أحياناً، في الفكر الغربي اللاحق. ومع ذلك، فإن رياحاً جديدة قوية كانت قد بدأت تعصف بالوعي الإغريقي - الروماني مع حلول الحقبة الكلاسيكية المتأخرة، برغم التجديد المرحب به للفلسفة

الوثنية في السنوات الأخيرة من حياة الأكاديميات على أيدي أتباع الأفلاطونية المحدثة. وفي النهاية، كان لا بد لروح الحقبة الهلينستية المسكونة بالقلق من أن تلتمس خلاصها في ملاذ جديد كلياً.

وبرغم جملة الاستثناءات المهمة التي سبق الإتيان على ذكرها، بدت الجهود اللاحقة للثقافة الهلينية في الحقبة الكلاسيكية مفتقرة إلى التفاؤل والفضول الفكريين الجريئين اللذين كانا قد طبعا اليونانيين السابقين وميزاهم. على الأقل يظهر على السطح، أن الحضارة الهلينستية بدت لافتة ومثيرة لتنوعها لا قوتها، لذكائها العالمي، لا عبقريتها المستلهمة، لدأبها على إدامة وتطوير مآثرها وإنجازاتها الثقافية السابقة، لا لانشغالها بصياغة مآثر جديدة. كثرة من التيارات ذات الشأن كانت فاعلة، غير أن الحشد لم يكن متجانساً. بقيت النظرة الثقافية قلقة، ارتيابية ميالة إلى الشك حيناً ودوغمائية مكبلة بالجمود العقديّ حيناً آخر، توفيقية مرة ودافعة نحو التشظي مرة أخرى. جملة المراكز التعليمية ذات المستوى التنظيمي الرفيع بدت عامل إحباط للعبقرية الفردية. فلدى حصول الاجتياح الروماني لليونان في القرن الثاني قبل الميلاد، كان الزخم الهليني قد بدأ يتضاءل ويخبو، تاركاً مكانه لنظرة أكثر مشرقية، نظرة قائمة على إخضاع الإنسان لقوى ما وراء الطبيعة المهيمنة والطاغية.

روما

إلا أن الحضارة الكلاسيكية شهدت في روما ازدهاراً خريفياً واسعاً، حفزه المزاج العسكري والتحريري للجمهورية أولاً، وغذّاه بعد ذلك عصر السلام الروماني **باكس رومانا** (Pax Romana) المتحقق خلال حقبة الحكم الأمبراطوري الطويلة لقيصر أوغسطوس، بعد ذلك. بنوعٍ من الدهاء السياسي والنزعة الوطنية الراسخة، معززين بالإيمان بآلهتهم الملهمة والمرشدة، نجح الرومان ليس فقط في اجتياح حوض البحر الأبيض المتوسط كله مع جزء كبير من أوروبا، بل وفي أداء رسالتهم المتصورة المتمثلة في نشر مظلة حضارتهم فوق العالم المعروف من أوله إلى آخره. لولا ذلك الاجتياح الذي لم يصبح ممكناً إلا بفضل التكتيكات العسكرية التي لا تعرف معنى الرحمة والعبقرية السياسية الطموح لدى قادة مثل يوليوس قيصر، لما كان بقاء التركة

الإيجابيـة للثقافة الكلاسيكيـة، في الغرب أو الشرق، ونجاتها مـن ضغوط الإغارات والهجمات البربرية والمشرقية اللاحقة، واردين في قائمة الاحتمالات.

ثقافـة روما بالـذات أسهمـت إسهاماً ذا شـأن في الإنجاز الكلاسيكـي. فكل من **شيشـرون، وفيرجيـل، وهوراس، وليفي**، أوصل اللغة اللاتينيـة، تحت تأثير المعلمين والأساتـذة اليونانيـين، إلى مستوى رفيع مـن النضج البلاغي. والتربيـة (البايديا) اليونانيـة اكتسبـت روحـاً جديـدة في هيومانيتاس (ترجمـة شيشرون لكلمـة بايديا اليونانيـة) الأرستقراطية الرومانية، التعليم الليبرالي المستند إلى الكلاسيكيات. أما الميثولوجيا (علم الأساطير) اليوناني فجرى رفدها، وإغناؤها، والحفاظ عليها في كتلة الميثولوجيـا الرومانية، كما تم نقلهـا إلى الأجيال اللاحقة الغربية عبر مؤلفات **أوفيد وفيرجيـل**. وقد فعل الفكر الحقوقي الرومـاني، المتضمن إحساساً جديداً بالعقلانية الموضوعيـة والقانـون الطبيعـي المستمدين من مفهـوم **اللوغوس** الكـوني اليوناني، فعلـه إذ أضفى وضوحاً منهجيـاً على زحمة المعاملات والمبـادلات التجارية المخترقة للأمبراطوريـة طولاً وعرضـاً، متجاوزاً فوضـى القيود الجمركية المحليـة المتضاربة ومطوراً حزمة مبادئ ناظمة لقوانين الاتصال والملكية ذات الأهمية الحاسمة بالنسبة إلى تطور الغرب اللاحق.

انطوت الطاقة والضخامة المجردتـين للمشروع الروماني على فرض مهابة العالم القديم ورهبته، إلا أن إشراق ثقافة روما وبهاءها لم يكونا إلا **نسخة مقلّدة** (imitatio)، وإن مستلهمـة، لمجد اليونان، ولم تتمكن ضخامتها وحدها من الحفاظ، إلى أجل غير مسمـى، على الروح الهلينية. ومع أن نبـل الطابع انعكس، في الكثير من الأحيان، على مـرآة فوضى الحياة السياسية، فـإن العبقرية الرومانية ما لبثت، تدريجياً، أن فقدت حيويتها. إن نجاح نشاط الأمبراطورية العسكري والتجاري الجامح والكاسح بالذات، وهـو نجاح لا علاقة له بأي دوافع أكثر عمقـاً، كان يؤدي إلى إضعاف لحمة المواطنية الرومانيـة وسداها. أكثرية الفاعليات العملية، بله النشاط العبقري، تدهورت تدهوراً خطـيراً في الأمبراطوريـة بعيد **جالينوس وبطليموس** في القـرن الثاني قبل الميلاد، وبريـق روعة الآداب اللاتينية بدأ يخبو في الحقبة نفسها. أما الإيمان بتقدم الإنسان،

ذلك الإيمان المتجلي بوضوح وعلى نطاق واسع في الازدهار الثقافي المبهر الذي شهدته يونان القرن الخامس قبل الميلاد الذي تم التعبير عنه بين الحين والآخر، من قبل علماء وتكنولوجيين عادة، في العصر الهليني، فكاد يختفي في القرون الأخيرة من عمر الأمبراطورية الرومانية. كانت أروع ساعات الحضارة الكلاسيكية قد أصبحت من الماضي، وجملة العوامل المختلفة التي تضافرت لدفع روما إلى الهاوية - إدارة قمعية قائمة على النهب والسلب، وطبقة جنرالات ذات طموحات متطرفة، وإغارات بربرية دائمة، وأرستقراطية فاسدة وعاجزة، وتيارات دينية معارضة ناشطة بهدف تقويض السلطة الأمبراطورية وشل الاندفاع العسكري، وتضخُّم فظيع متواصل، وسلسلة أمراض وبائية، وكتلة سكانية متضائلة دون حيوية أو تركيز - أسهمت جميعاً في التعجيل بالموت الواضح بجلاء للعالم المستوحى من اليونان.

ولكنْ تحت الركام المتألق للثقافة الكلاسيكية، وفي قلب مصدر النسيج الديني الهلينستي، ثمة عالم جديد كان يتشكل ببطء وثبات عنيد.

انبثاق الديانة المسيحية

إن الحضارة اليونانية - الرومانية الكلاسيكية، التي تُعد كياناً واحداً، نشأت، وازدهرت، وأفل نجمها في غضون ألف سنة. أواسط هذه الألفية، عاش في الجليل عند تخوم الأمبراطورية الرومانية قائد شاب هو يسوع الناصري، علّم، وقضى نحبه. رسالته الدينية الجذرية تبنتها مجموعة صغيرة، ولكنها شديدة الحماس والإيمان من التلاميذ اليهود الذين آمنوا بأن يسوع كان، بعد موته على الصليب، قد ارتفع عائداً إلى السماء وتجلى بوصفه المسيح (المدهون بالزيت)، سيد العالم و**مخلّصه**. تم بلوغ مرحلة جديدة من مراحل تطور الدين مع ظهور **بولس** الطرسوسي الذي كان يهودي المولد، روماني الجنسية، ويوناني الثقافة. وهو في الطريق إلى دمشق لوقف تواصل انتشار ما رآه هرطقة وتهديداً للأصولية اليهودية، وقع بولس أسير حلم عن المسيح الصاعد. وبعد ذلك تبنى بحماسة الدين الذي كان عدوه اللدود، وأصبح بالفعل أوسع مبشريه شهرة وأكثر لاهوتييه تأسيساً. وفي ظل قيادة بولس، سرعان ما انتشرت الحركة الدينية الصغيرة، واصلة إلى الأجزاء الأخرى من الأمبراطورية -إلى آسيا

الصغرى، ومصر، واليونان، وروما نفسها- وبدأت تتأسس، بوصفها كنيسة عالمية.

خلال الحقبة الهلينستية المضطربة، ثمة ظاهرة أشبه بأزمة روحية بدت صاعدة في الثقافة، ثقافة بات منتسبوها المسكونون بالحاجة الواعية إلى مغزى شخصي ما في الكون ومعرفة شخصية بمعنى الحياة. وإلى مثل هذه الحاجة كانت تتوجه سائر الديانات السرية، والعبادات الشعبية، والمنظومات الغريبة، والمدارس الفلسفية، جميعها، بخطابها، إلا أن المسيحية هي التي برزت تدريجياً بوصفها العقيدة المظفرة، بعد مُدَد متقطعة من الملاحقة والاضطهاد الشرسين من جانب الدولة الرومانية. ونقطة الانعطاف في هذه العملية كانت أوائل القرن الرابع الميلادي مع الاهتداء التاريخي لقسطنطين، أمبراطور روما، الذي ما لبث أن التزم هو، وألزم سلطته ودولته الأمبراطورية بقضية التبشير بالمسيحية ونشرها[13].

كان العالم الكلاسيكي قد شهد انقلاباً عاصفاً في قرونه الأخيرة؛ جراء تدفق الدين المسيحي من الشرق وغزوات برابرة الجرمان من الشمال. مع حلول نهاية القرن الرابع، كانت المسيحية قد أصبحت ديانة الدولة الرسمية للأمبراطورية الرومانية، ومع حلول نهاية القرن الخامس كان الأمبراطور الروماني الأخير في الغرب قد أُطيح به من قبل أحد الملوك البرابرة. بدا على السطح كما لو أن الحضارة الكلاسيكية قد تعرضت للإطفاء في الغرب، كما لو أن مآثرها وأفكارها العظيمة قد تُركت للبيزنطيين وللمسلمين بعد ذلك؛ ليحفظوها وكأنها متحف. لقد أصاب **إدوارد غيبون** كبد الحقيقة حين لخّص الوضع في كتابه **تاريخ انحطاط الأمبراطورية الرومانية وسقوطها**، قائلاً: (لقد قمت بوصف انتصار البربرية والدين). أما من وجهة النظر بعيدة المدى لتطور الغرب المعقد، فإن هاتين القوتين الجديدتين لم تقوما بالإجهاز والاستئصال الكاملين للثقافة اليونانية - الرومانية بمقدار ما عكفتا على تطعيم الأسس الكلاسيكية عالية التطور وعميقة الجذور بعناصرهما الخاصة المميزة[14].

برغم انحدار أوروبا إلى نوع من العزلة والجمود الثقافيين خلال القرون اللاحقة (ولاسيما بالمقارنة مع الأمبراطوريتين البيزنطية والإسلامية) نجحت الحيوية القلقة المبادرة لدى الشعوب الجرمانية في التزاوج مع التأثير التمديني لكنيسة

روما الكاثوليكية وصولاً إلى التمخض عن ثقافة كانت ستنجب، خلال ألف آخر من الأعوام، الغرب الحديث. وهذه العصور (الوسطى) بين الحقبة الكلاسيكية والنهضة كانت، إذًا، مدة حَمْل ذات شأن لا يستهان به. كانت الكنيسة المؤسسة الوحيدة الموحِّدة للغرب والدائبة على إدامة نوع من الارتباط بالحضارة الكلاسيكية. أما البرابرة فقد اضطلعوا، هم أيضاً، بدورين مهمين: اعتنقوا المسيحية وبادروا في الوقت نفسه إلى إنجاز المهمة العظيمة المتمثلة في تعلم واستيعاب التراث الفكري الغني للثقافة الكلاسيكية التي كانوا قد ألحقوا الهزيمة بها. والمخاض المدرسي العظيم، ذلك المخاض الذي تم على امتداد مدة دامت ألف سنة في الأديرة أولاً، وفي الجامعات بعد ذلك، أحاط ليس فقط بالفلسفة والآداب اليونانية جنباً إلى جنب مع الفكر السياسي الروماني، بل وبجملة الكتابات اللاهوتية المثيرة الآن التي خطتها أقلام الآباء المسيحيين القدماء، تلك الكتابات التي توجتها مؤلفات **أوغسطين** الذي عاش وكتب أوائل القرن الخامس تماماً، حين كانت الأمبراطورية الرومانية تتداعى أمام ناظريه وتنهار من حوله تحت ضربات الغزوات البربرية. إنه الاندماج المعقد والمركب لحشد من العناصر العرقية، والسياسية، والدينية، والفلسفية الذي تمخض تدريجياً عن النظرة العالمية الشاملة المشتركة في المسيحية الغربية. وهذه النظرة المسيحية الخارجة من رحم النظرة الكلاسيكية اليونانية، بوصفها الرؤية الممسكة بزمام الثقافة كانت ستُغني وتُلهم حيوات وأنماط تفكير الملايين، حتى الحقبة الحديثة، ومازالت تفعل، بالنسبة إلى كثيرين.